الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه، ومن استنَّ بسنته واهتدى بهديه إلى يوم الدين. أما بعد:

فالحمد لله الذي جعلَ العلم نورًا وهدايةً للمسترشدين، وجعله سبيلًا لنيل رضا رب العالمين؛ إذ به تصحُّ العبادات؛ وبدونه يسقط الإنسان في غيابه الظُّلمات، فلا يعرف مُعتقدًا، ولا يُحسن عبادةً، ولا تصلح منه معاملة.

فالعلم: هو النور الذي أنزله الله في الأرض، وهو الذي ورَّثه الأنبياء لمن حملوه، والله عز وجل قد فاضل بين أهل العلم وغيرهم، فقال جل وعلا: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:١١]، وقال سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]، وقال: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:١٨].

والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاضل بين أهل العلمِ وطلبته، وبين غيرهم، فقال: «فضل العالم على العَابد كفضلي على أدْنَاكُم».

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فضلُ العَالم على العَابد كفضل القمر على سائر الكَواكِب».

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «وإن الملائكة لتضعُ أجنحتها لطالب العلم رضًى بما يصنع».. إلى غير ذلك مما ورد من النصوص الكثيرة المستفيضة الدَّالة على فضل العلم.

وتاج العلوم ورأسها وأُسها وأساسها: علمٌ يتعلق بالله الخالق البارئ المُصور جل وعلا، إذ أنه بدونه لا تصح سائر العلوم، وبفسادِهِ لا ينجو الإنسان من العذاب الوخيم، فإن الإخلاص بالعقيدة حبوطٌ للعمل، لأنه ضياعٌ لحقه الخالق جل وعلا الذي قرَّر في كتابه أنه ليس سبب وراء خل هذا الخلق إلا تحقيق هذا العلم الذي هو يتعلق بالله جل وعلا اعتقادًا وعملًا، فقال جل وعلا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] ، وبيَّن سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن من حقق هذا العلم تعلُّمًا وعملًا ودعوةً فهو

بأعلى المنازل، فقال جل وعلا: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣]، وقوله: ﴿إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣] إظهارٌ وإشهارٌ وتقريرٌ للتوحيد، الإسلام هو إفراد الله عز وجل بالعبادة، وهو الاستسلام له بالتوحيد والخلوص من الشرك.

وقوله عز وجل: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [فصلت:٣٣] ، فهو عملٌ بهذا العلم.

وقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ﴾ [فصلت:٣٣] ؛ أي إلى توحيد الله وتحقيق حقه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

ومن هُنا جاءت أهمية مثل هذه الدروس وخاصةً الدروس التي تتعلق بتوحيد الإلهية، لأنه التوحيد الذي خُلقت لأجله جميع البشرية من سائر الأمم، فإن الله عز وجل ما أَرسل الرسل إلى أُممهم إلا لما خالفوا في هذا الباب في توحيد الخالق في توحيد الإلهية أو الألوهية أو العبادة، أو المألوه المعبود، فجعلوا له شُركاء، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤] ؛ أي يُنذرهم من الشرك، ويدعوهم إلى التوحيد.

ثم اختيار مثل هذا الكتاب كتاب التوحيد لشيخ الإسلام المُجدد لما اندرس من معالم الإسلام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى، اختيارٌ يصدر عن بصيرةٍ ودرايةٍ وإدراكٍ لحاجةِ البشرية وهو تسديد من الله جل وعلا لطالب العلم الذي وُفق لمثل هذا الكتاب.

فإن عامة المسلمين في زماننا قد أخلُّوا في باب الإلهية، وعبدوا مع الله آلهةً أُخرى، مع علمهم ودرايتهم وقراءتهم بأن هذا هو سبب خلودهم في النار، كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

والسعيدُ مَن عرف حق ربِّه وأدَّاه ودعا إليه، فهذا يسعد في الدّنيا والآخرة، قال عز وجل: ﴿مَنْ عَمِلَ

صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

والعمل الصالح لا يكون صالحًا إلا إذا توفر فيه شرطان:

الشرط الأول: الإخلاص لله جل وعلا.

والشرط الثاني: موافقة هدي الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فالتوحيد هو أساس قبول الأعمال، وبدونه لا يخلص الإنسان إلى الجنَّة، قال جل وعلا: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١].

الشاهد: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ﴾ [آل عمران:٣١]، هذا هو التوحيد أي تجعلون أعمالكم لله، ثم تأتون بها وُفق ما جاء بها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد وضع شَيْخُ الْإِسْلَامِ محمد بن عبد الوهاب هذا الكتاب في صدد مكاتبةِ أمراء قبائل العرب المُحيطين أو الذين هم في نجدٍ ومُحيطين بها، والذين هم في سائر أرجاء الجزيرة العربية في وقته، لأن الأرض وقته مُلئت شركًا وأظلمت.

فانتهض رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان قد خُولف وعورض وأوذي في ذلك فصبر حتى إنه أُخرج من بلده، فكان خروجه فتحًا له، وكان ذلك من تدبير الله جل وعلا كما هو الشأن مع سائر أوليائه فإن الله ينصرهم ويؤيدهم ويهديهم ويُسخر لهم من خلقه من شاء لنصرتهم وحمايتهم، وكذلك إعانتهم على القيام بما من أجله أُوذوا، فكتب هذا الكتاب كتاب «التوحيد» وأرسل به إلى أمراء القبائل وشيوخها يدعوهم إلى تحقيق حق الله عز وجل، فاستجاب له خلقٌ كثير، وعاند البعض اليسير، فانتهض الإمام محمد بن سعود رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى بعد أن التقيا وتعاهدا وتعاقدا على نشر التوحيد، فانتهضا مُحاربًا لأولئك الذين أبوا إلى الشِّرك وعبادة القبور والأشجار والأحجار، فكان في ذلك نصرٌ عظيم تأسست الدولة السعودية الأولى التي شملت معظم الجزيرة العربية.

ثم لم يزل أعداء التوحيد يُحاربونها من صوفية قبورية، وبتأييدٍ من القوى العظمى في زمانهم من يهود ونصارى الذين هم على الشرك المناهض للتوحيد، واستمر الشيخ صابرًا ومعه الإمام محمد بن سعود جزاهم الله خير حتى شاع نور الإسلام النقي من جديد في سائر أرجاءٍ معمورة وليس في الجزيرة بحسب، فاليوم لا يكادُ يوجد بيتٌ من بيوتات المسلمين إلا وفيه من يعرف التوحيد ويقرأ كتاب التوحيد للإمام محمد بن عبد الوهاب، فنسأل الله عز وجل أن يجعل مدارستنا له فتحًا لقلوبنا، ويجعلها فتحًا لحصون العلم المنيعة حتى نلج قلاعها، فنُقيم بساتينها وجنانها نتفيؤ ضلال التوحيد ونستنشق عبيره، وهواءه النقي بعيدًا عن تلوث الشرك والخرافة والبدعة، ونسأله عز وجل أن يجعل ما نقوم به خالصًا لوجهه، وأن يُباعد بيننا وبين الشرك وطرائقه وأسبابه وأهله.

ثم نستعين الله عز وجل في البدء فليتفضل القارئ.

قَالَ المُصنِف رَحِمَهُ اللَّهُ:

بِسْمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ

كِتَابُ التَّوْحِيدِ

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء:٣٦].

وَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ * وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۞ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ؛ فَلْيَقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ .. إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام:١٥٣].

وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ، فَقَالَ لِي: «يَا مُعَاذُ؛ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ؟، وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ؟»، قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ: أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ: أَنْ لا يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟، قَالَ: «لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا». أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَينِ».

قال الشارح وفقه الله:

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: (**كِتَابُ التَّوْحِيدِ**) هكذا بدأ.

(**وكتاب**) في لغة العرب مصدر من كتبَ يكتب كتابةً.

والتوحيد مصدرٌ من وحَّد يوحِّد توحيدًا أي جعل الشيء واحدًا.

وهذا الاسم المؤلف من كلمتين المُراد منه: كتاب توحيد الإلهية، أو توحيد الله في العبادة وإفرادُهُ بها، لأنه إنما يتناول جوانب العبادة، والتي هي عمل العبد، ولا يتناول جوانب الربوبية التي هي أعمال الرَّب عز وجل، ولا يتناول الأسماء والصفات، وإنما ركز على تناول أعمال العبد بالنقاش والنظر، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ بادئًا الكتابَ بغير مُقدمة، وقيل: أنه جعلَ هذا الباب كالمُقدمة للكتاب ولذلك لم يُبوب له، ولم يَقُل باب كذا.

وقال بعض أهل العلم: أنه لما كان رسائل يرسل بها إلى الأمراء لم يصغه صياغة كتاب، وإنما صاغها صياغةَ رسائل دون مُقدمات.

وقال بعضهم: إن التبويبات لم تكن منه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ولكن كانت من أبنائه وتلامذته من بعده.

وأيًا كان الأمرُ، فإن الكتاب قد استُهل بهذه الجملة الدَّالة الكاشفة لمحتواه والمُراد منه.

فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**كِتَابُ التَّوْحِيدِ، وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾** [الذاريات: ٥٦]).

قوله: (**﴿وَمَا﴾**) هنا بمعنى (لَم) المبينة للسبب والعلَّة، فإنه أراد سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بيان علَّة خلقه للخلق جميعهم.

ثم خصَّ منهم الذين شذوا فخالفوا في باب التوحيد والإفراد لله عز وجل بالعبادة، فإن جميع خلقه له موحدون من ملائكة وأشجار وأحجار، وحيوان وطير، كل ذلك موحدٌ لله وغير ذلك، إلا الإنس والجن، فهُم الذين ظهر فيهم المُخالفة في باب التوحيد، فجعلوا مع الله آلهةً أخرى.

وقوله: (﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ﴾ [الذاريات: ٥٦]). بدأ بذكر الجن؛ لأنهم كانوا أسبق في الخلق، فقد خلق الله عز وجل الجن قبل الإنس، كما أخبر سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في سورة البقرة حين قالت الملائكة لله عز وجل: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة:٣٠] إشارةً إلى ما جرى من الجن الذين سبقوا الإنس في الخلق والإيجاد وسُكنى الأرض، فإنهم أفسدوا وقتَّلوا وعبدوا غير الله، فأرسل الله عليهم الملائكة تُقاتلهم وتحشرهم إلى الجُزر في البحور وتقعدهم عن الأرض بأمر الله، إلا شابًا كان منهم ناسكًا عابدًا فأراد الله عز وجل أنْ يُجري أقداره بحكمته سبحانه فأمر الملائكة أن يحملوه معهم إلى السماء، وضل فيها ناسكًا مُتعبدًا حتى ابتلاه الله بخلق آدم وابتلى آدم به، فإنه لما خلق الله آدم وجعله جسدًا مُسجى لا روح له، كان إبليس يمر عليه وينفخ فيه، فيخرج صفيرٌ ويقول: لئن سلطني الله عليه لأحتنكنه ذريته، فلما نفخ الله في آدم من روحه وأمر ملائكته ومن في السماء أن يسجدوا له فسجدوا جميعًا إلا إبليس أبى، وما كان سبب إبائه إلا الكبر، كما قال جل وعلا: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة:٣٤]، وما كان هذا الكِبر إلا كُفرًا وتأليًا على الله وهو أمرٌ مؤصلٌ في عامة الجن، وبعد أن كان تقيًا عابدًا نزعه ذلك الطبع الجني فكفر، كما قال الله عز وجل في سورة الكهف: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف:٥٠].

قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

ومناسبة الآية للباب: أنها دالةٌ مظهرةٌ وجوب التوحيد؛ لأن الله عز وجل حصر سبب الخلق في تحقيق التوحيد، فمن جاء بالتوحيد نجا، ومن أخلَّ بالتوحيد هلك.

ثم قال: (**وَقَوْلِهِ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾** [النحل: ٣٦])، فالله عز وجل بعث في جميع الأمم رُسلًا، كما قال سبحانه: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]. وقال: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤]. وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ [القصص:٥٩]؛ أي ما كان ربك ليُهلك من في تلك القرى أي المدن والحواظر من البشر ما كان الله ليُهلكم بعذاب ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا﴾ يعني في

كُبراها التي يرجعون إليها ﴿رَسُولًا﴾ مهمته ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ التي تُنذرهم وتأمرهم تنفذرهم عن الشرك وتأمرهم بالتوحيد، قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص:٥٩]؛ أي بالشرك؛ لأنه أعظم الظُّلم كما قال الله عز وجل فيما أوصى لقمان به ابنه فقال: ﴿يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

ثم بين سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ مهمة هؤلاء الرسل: (﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]) هذه مهمتهم يدعون الناس إلى عبادة الله واجتناب عبادة الطاغوت، والطاغوت هو كل ما تجاوز به العبد حدَّه من معبودٍ أو متبوعٍ أو مُطاع، وهو أي ذلك المعبود والمتبوع والمُطاع راضٍ، فالناس قد تجاوزوا الحد ببعض المخلوقات، فأمرهم الله أن يجتنبوا ذلك، وألا يرفعوا أحدًا إلى مقام الإلهية، فيصرفوا له شيئًا من حق الله جل وعلا.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ موردًا آية الأخرى في الاستدلال على وجوب إفراد الله بالعبادة وهو التوحيد، فأورد آية سورة الإسراء: (وَقَوْلِهِ: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ﴾) قضى بمعنى أمر، والقضاء قضاءان: قضاءٌ شرعي، وقضاءٌ كوني قدري.

قضاء كوني قدري: وهو أنك خُلقت في هذا الوقت لهذا الأب وهذه الأم بهذه المواصفات بهذا الشكل، هذا قضاء قدري كوني أنت لا دخلَ لك فيه، ولا تؤجر عليه، ولا تأثم عليه.

وقضاء شرعي ديني، وهو ما أمر الله به فعلًا وتركًا، فهذا الذي تقوم عليه سوق الجنة والنار، ويكون لأجله الحساب يوم القيامة، ولهذا قال: (﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]) كما قال في الفاتحة: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]، أي لا نعبد سواك، وهنا قال: (﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣])، ولابد أن تعبده، لأن الإنسان إذا ترك العبادة بالكلية فهو عابدٌ لهواه، وإن لم يعبد شيطانًا أو طاغوتًا، فإنه عابدٌ لهواه، كما قال الله عز وجل: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الجاثية:٢٣]، أو اتخذ إلهه أي معبوده هواه، ما أحله له هواه فعل به، وما حرم عليه هواه تركه.

قال: (﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣])، فهذا بيان حق الله عز وجل ومطابقة الآية لكتاب التوحيد

هو وجوب إفراد الله عز وجل بالعبادة.

ثم أورد آيةً أخرى في الدلالة على ذلك، وهي آية النساء قوله عز وجل: (﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء:٣٦])، وهذه الآية تُفسر آية الإسراء التي قال الله عز وجل فيها: (﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] ، هنا قال: (﴿وَاعْبُدُوا﴾) فلا يُفهم من تلك الآية أنه لا تعبدوا أبدًا، إما أن تعبدوا الله أو لا تعبدوا شيئًا لا، وإنما المُراد بها: (اعبدوا الله ولا تعبدوا سواه) بدلالة قوله عز وجل في آية النساء: (﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء:٣٦])، وقال في البينة: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة:٥] أي دون عبادة ما سواه.

قال: (﴿وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء:٣٦])، شيئًا نكرة، جاءت في سياق النهي، والنكرات إذا جاءت في سياق النهي أو النفي أو الاستفهام فإنها تُفيد العموم (شيئًا) أي أي شيء عظُم أو صغُر، فلا تعبدوا جبريل ولا تعبدوا نوح ولا آدم ولا موسى ولا عيسى ولا إبراهيم ولا محمد ولا أحمد، ولا تعبدوا قمرًا ولا شجرًا ولا شمسًا ولا حجرًا، ولا إنسًا ولا جنًا، وإنما تعبدوا الله وحده، كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧].

فلابد من العبادة، ولابد من إفراد الله عز وجل بها.

ثم أورد آيةً أُخرى تدل على وجوب التوحيد، وهي آية الأنعام، وقوله عز وجل: (﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾) وهذا معناه: تعبدوا ولا تُشركوا، تعبدوه مخلصين له ولا تُشركوا به شيئًا.

وهذا أمرٌ من الله عز وجل لنبيه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن يقول: للمشركين ولعامة البشر، ألا يتركوا عبادة الله، وألا يُشركوا مع الله شيئًا، قال: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ ففي ضمن الآية التوحيد وهو قائمٌ على العبادة، فتعبدوا الله ثم لا تُشركوا.

ثم أورد المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى أثر ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في هذه الآية، وقد وصف رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وصفًا دقيقًا يُنبئ عن علمٍ راسخٍ عظيمٍ، فقال رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: («مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ») أي ما وضع عليها الختم بحيث لا يُزاد فيها ولا يُنقص، لأن أي وثيقةٍ يوضع عليها الختم فقد أُقفلت عن الزيادة والنقص.

ثم قال: (فَلْيَقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ .. إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام:١٥٣]).

في آخر الآية قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣]، وفي آخر الآية الأولى قال: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:١٥١] .

ثم بعد ذلك أورد حديث معاذ وهو حديثٌ عظيمٌ في الدلالة على عددٍ من الأمور:

أولها: تواضع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه كان يركب على الحمار، وهو سيد الخلق، ويركب الأتان، ويركب الناقة، وكان يمشي، فهنا في هذا الحديث أردف معاذًا وراءه، وهذا أيضًا من التواضع، وقد أردف معاذًا وأردف أسامة بن زيد من عرفات إلى مزدلفة، وأردفَ الفضل ابن عباس من مزدلفة إلى منى، وهذا يدل على تواضع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع أنه سيد الخلق، وأيضًا ثبت أنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما وجَّه معاذًا إلى اليمن، وكان معاذ قد ارتحل راحلته، وبدأ في السير متوجهًا إلى اليمن كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسير على قدميه إلى جانب راحلة معاذ ومعاذٌ عليها، وهذا من تواضعه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

فقال: (وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حِمَارٍ، فَقَالَ لِي: «يَا مُعَاذُ») وهذا أسلوب من أساليب التعليم، ويُسمى التعليم المباشر أو النداء المباشر، التعليم بالنداء لشحذ الانتباه لانتباه السامع فناداه قال: («يَا مُعَاذُ») قدَّم له بمقدمة تُفضي إلى فتح ما انغلق من قلبه حتى يستوعب ما يُلقى عليه، قال: «يَا مُعَاذُ، أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ؟، وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ؟») فهاتان جملتان كفيلتان لمن له عقلٌ إن سمعها أن يُصغي جيدًا.

قال: (**قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**) وهذه الجملة هي أبلغ ما يكون في الجواب إلا لمن جهل الجواب، أو لمن أراد ألا يجيب لسببٍ من الأسباب، ولكنْ لا يُجاب بهذه الجملة إلا فيما يتعلق بالشرع.

وأما إذا سُئل الإنسان في أمرٍ مما يتعلق بالدنيا مثلما وقع بعد عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو وقع في غير مكانه أو زمانه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه يقول: الله أعلم دون إيراد الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها، لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشر، فلما كان حيًا كان لا يعلم ماذا يكون في مكانه إلا إذا آتاه وحيٌ بذلك، وعامةُ حياته، فقد كانت على مثل ما تجري عليه حياة الناس، لا يعلمون إلا بما رأوا أو سمعوا، فإن البشر لا يعلمون الغيب، كما قال الله عز وجل: ﴿قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل:٦٥].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لنبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آمرًا إياه أن يقول للناس جميعًا: ﴿قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٨].

فهو لم يكن يعلم الغيب، فلذلك ما سُئلت عنه مما لا يعلمه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه من الغيب، أو مما وقع بعد زمانه، فقل: الله أعلم. وإذا كان السؤال فيما يتعلق بالدين عامة فقل: الله ورسوله أعلم، لأن الدين ما جاءنا إلا من قِبل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو يعلم كل شيءٍ في الدين؛ لأنه هو الذي بلَّغه.

قال: (**قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ**) عندئذٍ لما استوثق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من حضور قلب معاذ بما يُلقى عليه، وشحذ همته وانتباهه ألقى عليه ذلك الأمر العظيم، فقال: (**«حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ: أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**) أمران: لابد أن يعبدوه، فلو تركوا الشرك مع ترك العبادة ما رضي عنه، ولا أدخلهم جنته، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠] . فلابد من العبادة، ولابد مع العبادة من البُعد عن الشرك، فلو أن الإنسان عبدَ الله بصلاةٍ أو صدقةٍ أو غير ذلك مُخلصًا، ثم عبدَ غير الله بعملٍ آخر، فإن تلك العبادة تذهب

بكل شيء كما قال الله عز وجل في سورة البقرة: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الزمر: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الزمر:٥٦-٦٦]، وقالوا: (**وَحَقُّ العِبَادِ عَلَى اللهِ**) أما حق الله على العباد فهو حقٌ مُستحقٌ لله، لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو خالقهم وهو رازقهم وهو مالك أمرهم، وأما حق العباد على الله، فهذا تفضلٌ منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، تفضلٌ منه وإحسان، ليس واجبًا على الله، وإنما فضلٌ منه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يُدخلهم الجنة كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لن يدخل أحدٌ الجنة بعمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته»، فهذا فضلٌ من الله.

قال: (**قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟، قَالَ: «لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا». أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»**).

قوله: (**أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟**) دلالة على أهمية البشارة؛ لأنها تفتح القلوب وتشرح النفوس للقيام بما يوجبه ما بُشروا به، والله عز وجل أمرَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُبشر في كثيرٍ من المواضع قال: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ﴾ [البقرة:٢٥]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥]، وقال: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١١٢]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج:٣٧]، ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج:٣٤].

والله عز وجل سمَّى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بشيرًا، قال: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة:١١٩]، وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ:٢٨]، وسماه مُبشرًا، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء:١٠٥]، فالبشارة تكون فيما يجلب الخير والسرور، وهي مطلوبةٌ، ولكن لمن أتى بموجب الفرح والسرور، وضد البشارة النذارة، فيُبشر أهل التوحيد والطاعة ويُنذر أهل الشرك والمعصية.

وما قال معاذٌ: «أفلا أُبشر الناس» إلا لعلمه أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحب البشارة، ويُحب التبشير،

وفي الحديث أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أتاه رجل فسأله مالًا فقال له النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أبشر» فما ارتضاها ذلك الرجل فقال: أبشر أبشر، كأنه تقالها، وقال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لرجلين عنده: «اقبلا أنتما» فقبِلا بشارة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، ولهذا قال معاذ: «أفلا أُبشر».

وقال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لما أرسل أبا موسى الأشعري وعلي بن أبي طالب إلى اليمن، قال: «بشِّرا ولا تُنفرا، ويسرا ولا تُعسرا».

جاء في مواضع أخرى في ذكر الحديث قال: «فحدَّث بها معاذ قبل موته تكتمًا» أو خوف كتمان العلم مَخافة كتمان العلم، فيسأله الله عز وجل عن ذلك، وإلا مُذ قال له النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «لا تُبشرهم فيتكلوا» فقد أمسكها معاذ، ولم يُبشرهم حتى لا يتكلوا على الإيمان ويدَعُوا العمل، وهذا دليلٌ قويٌ على أن العمل داخلٌ في مسمى الإيمان.

فنسأل الله بمنِّه وكرمِهِ أن يجعلنا من المبشرين بكل خير الدالين على الله عز وجل بطريقٍ تُقبل عند الناس دون تنازلٍ عن شيء من الدِّين.

ونسأله عز وجل أن يجعلنا قائمين على التوحيد داعين إليه ودالين الناس إليه، وذابين عن حياضه مُدافعين عنه أبدًا حتى نلقاه، وأن يُبصرنا وإياكم بديننا.

والله تعالى أعلم.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.